

حوار الصحفي ايهاب الخضرجي مع الشاعر الدكتور حسن فتح الباب

قال الشاعر حسن فتح الباب...

انني مع التجديد حتي آخر الحدود ، لكن بشرط توافر العناصر الأساسية للإبداع. عناصر الإبداع: إمتلاك الرؤية و وضوحها، و اللغة الصحيحة التي لا تهشم لغتنا العريقة و لا تعبت بها بإسم التجديد.

• الفارئ ضلع في مثلث الإبداع ، و الضلعان الآخران هما النص و مبدعه.

[ها أنت عائد إليها مرة أخرى ، مدينة الحلم التي حملتها في القلب ، غنيت لها في الفجر ، كان الفجر في زماننا طائرة الصباح، نلتقي، نطفي الجراح، و كان يأتي كل يوم مرة ، يحمل قرص الشمس في الجبين ، نستفتح المسير باسمه الجميل].

الشاعر الكبير حسن فتح الباب يترنم بتلك الكلمات الرائعة علي أبواب المدينة العربية التي عشقها، إنها كل المدن العربية ، فهي كلها في قلبه ، لأنها كلها مدينته ، ما دامت موجودة علي خريطة الوطن العربي الواحد ،، حلمه الكبير و إحدني القضايا التي أفني عمره من أجلها.

[و تأتي عودة الدكتور حسن فتح الباب إلي الامارات بعد اكثر من تسع سنوات عبر خلالها أجواء عديدة و التقى بالكثير من أبناء وطنه العربي الكبير ، و تغني بعشرات القصائد].

[تري ماذا أحدثت تلك السنوات في موقف و فكر الشاعر الكبير؟]

[هذا ما سنعيش معه من خلال الحوار معه ، و الذي يركز علي الجانب الأدبي الذي يمثل واحدا من أكثر المجالات اهتماما لدي للدكتور حسن فتح الباب].

الموجة الخطرة

[و الدكتور حسن فتح الباب يعد واحدا من رواد الشعر الحديث ، الذين عملوا علي تطوير شكل الشعر العربي ، و تخلصوا من القافية ، فأمكن تضمينه بمفاهيم شتى ، و أفكار عديدة، فأصبح بحق ينبض بمشاعر أبناء القرن العشرين. والآن ، و بعد مضي حوالي ٤٠ عاما علي تجربة الشعر الحديث الذي أثبت وجوده فعلا و قولاً ، كيف يري شاعرنا الكبير محاولات التجديد التي جرت خلال السنوات الماضية.]

قال الدكتور حسن فتح الباب : من المعروف أن مسيرة الأدب و الإبداع منه خاصة ، في اي زمان و مكان تتخللها انفجارات تودع الماضي و تتطلق إلي أفق جديد عبر ما يسمى بموجات تجديدية، و تقف خلف هذه التحولات الأحداث السياسية و الاجتماعية و الاقتصادية المتشعبة و المتداخلة ، و قد يكون هناك حدث عالمي يمثل نقطة تحول جذرية في تاريخ الإنسانية، او تاريخ القوميات مثل الحروب ، و ينعكس هذا بطبيعة الحال علي الماديات و المعنويات . و كل شي في تحول ، و ليس هناك ثبات دائم ، و إنما تثبت القيم الإنسانية و المبادئ العليا.

و فيما عدا ذلك فإن التطور يشمل كل مناحي الحياة في المجتمعات المختلفة لأن الأدب عامة و الشعر خاصة هو انعكاس رؤي للواقع ، بل لجذور الماضي ايضا و لإطلاقات المستقبل وفقا لفكر المبدع و حساسيته.

و أضاف الدكتور حسن : و نحن نعيش الآن فترة قلق في المجتمع العربي ، ما بين ماضي بعيد أو قريب اندثرت منه عناصر، و بقيت عناصر أخرى ، و نسمي هذه العملية المتغيرات و هي ردود أفعال لوقائع أو أحداث هامة . لقد كان من الطبيعي إذن أن تتغير الأشكال الأدبية و الفنية . و من هنا بدأ ما يسمى بالحدثة ، أو الحساسية الشعرية الجديدة التي يتبناها بعض الشعراء و النقاد .و هنا تكمن المشكلة، فموجة التحديث هذه موجة خطيرة قد تمثل تحولا حقيقيا في مجري الشعر ، و ربما تهوي به الي الحضيض ، و ذلك لان الكثيرين ممن ركبوا الموجة متشاعرون و متناقدون إذا جاز هذا التعبير. [اقتباس من المدرسة الفرنسية الحديثة!!]

[لكن الحداثة التي دعا إليها الشعراء و النقاد تعود الي الفترة التي اعقبت هزيمة ١٩٦٧ التي مست قلب و عقل و وجدان كل عربي من المحيط إلي الخليج .نحن الآن علي أبواب القرن الواحد و العشرين ، فهل الموجة الجديدة إمتداد لموجة الحداثة التي افرزتها هزيمة ٦٧.....؟
أجاب الشاعر فقال:

في رأيي إنها كذلك ، فالذين ابتدعوها
مازلوا في صدارة الدعاة للتحديث ، و ما زالت المصطلحات التي نادوا بها و المقتبسة من المدرسة الفرنسية الجديدة بعد تطويرها بما يتفق مع الذائقة العربية مستمرة ، مثل التعبير عن الحساسية الجديدة بأنها تفجير اللغة و إثارة الدهشة و الخروج عن العادي و السائد و المؤلف ، إلي آخر هذه المصطلحات ، و ما زالت هذه المصطلحات تتردد حتى اليوم.

و نقاط تدفق الكلمات ، و نسال شاعرنا الكبير حول مدي صحة مضامين هذه الشعارات او المصطلحات من وجهة نظرة ؟
قال الدكتور حسن ، هذه التعبيرات صحيحة ، و لكن الواقع يؤكد أن الإبداع الحقيقي يتضمن المسميات نفسها ، و إن لم تنتشر هذه المصطلحات إلا حديثاً، فالمتنبي و ابن الرومي و ابو تمام كلهم شعراء حداثيون ، اذ كانوا مجددين يقتحمون اللغة اقتحاماً ، و لا يقلدون ، يسبقون عصرهم و لذلك ما زلنا نتذوق إنتاجهم حتى اليوم . إن ما تغير هو الأشكال التعبيرية أما القيم فإنها باقية لتعبيرها عن النفس الإنسانية التي لا تتغير بتغير الأزمنة ، تعبيرا يتسم بالجمال ، و ما ال بيت أبي تمام في تصوير الجمل الضامر مثيراً للدهشة حتى اليوم:
رعته الفيافي بعدما كان حقة رعاها و ماء الطل ينهل ساكبه

[هل انقضي عصر الشعر الحديث ؟]

و نواصل الحوار حول الحداثة في الشعر مع الشاعر حسن فتح الباب، نسأله:
[تري هل انقضي عصر الشعر الحر او ما يسمونه شعر التفعيلة كما يري كثير من الحداثيين ، و اصبح السبيل ممهد ليزوغ فجر شعر جديد ؟]

و بحسم قال الدكتور حسن فتح الباب ؛ لا اعتقد ذلك ، فما زال هذا الشعر هو أصلح الأشكال الشعرية، و هو ما زال قابلاً للتطوير و التحديث ، و قادراً علي استيعاب هموم النفس العربية و النفس الإنسانية عامة .و لم يثبت أن به شائبة من قصور .ما زالت صورة لدي الشعراء الكبار مثل محمود درويش و سعدي يوسف و غب العزيز المقالح و سميح القاسم و الدكتور خليفة الوقيان و غيرهم عديون ، تتسم بالجدة ، و اللغة تتسم بالاقترام ، و نبذ المؤلف السائد.
و أضاف : و لم يقدم شعراء الحداثة الجدد أشكالا أرقى مما قدم هؤلاء و ما زالوا يقدمون .و كل ما طرأ من تغيير ، إذا سلمنا بأن هناك تغيراً هو التوسع في تضمين الأبيات او السطور الشعرية مقاطع نثرية قصيرة ، او طويلة أكثر مما نري في قصيدة الشعر الحر ، بل أن بعض الحداثيين يبالغون فيرون أن هذه القصيدة قد أدت دورها ، و أن لها أن تخلي الطريق لقصيدة النثر . و هذا اتجاه خطير يقضي علي روائع تراثنا الشعري العربي لانه يحكم بالإعدام علي القصيدة العربية الحديثة لحساب نمط إبداعي آخر هو القصيد النثري . فالقول بالإحلال أو الأبدال خطأ يبلغ حد الخطيئة.

و انا لست ضد القصيدة النثرية فهي فن قائم بذاته ، و أثبت مبدعوه وجودهم و قدراتهم علي الساحة الأدبية ، و لكنني ضد القول بانتهاء عصر الشعر الحر الذي بدا الاربعينات القرن الحالي . [و قال الشاعر حسن فتح الباب : أن الفيصل في التقييم لا ينبغي أن يكون بين شكل و آخر من اشكال الابداع ، و إنما هو مدي نجاح المبدع في سبيل تجربته . هذا هو المحك الذي ينبغي أن نقيس به العملية الإبداعية . إنني مع التجديد ، بل التجريب حتي آخر الحدود او اللاحود . لكن بشرط توافر العناصر الأساسية للإبداع ، و هي امتلاك الرؤية، و اللغة الصحيحة التي لاتهشم لغتنا العربية العريقة و لا تعبت بها باسم التجديد. فهناك قواعد للنحو و الصرف ينبغي احترامها. كذلك يصنع الحداثيون في فرنسا و غيرها فهم يحترمون لغتهم . كما أنه يشترط في رأيي وضوح الرؤية الذي لا يلغي الغموض الشعري ، فالغموض الشعري شرط اساسي بمعنى سحرية التعبير و الرؤية و هو ضد التعقيد . فليس كل نص معقد ابداعاً، كما أن النص الواضح ليس دائماً سطحياً . و أظن أن علة الإبهام او التعقيد هو عدم وضوح الرؤية في وجدان الشاعر .إن القارئ ضلع في مثلث الإبداع و الضلعان الآخران هما النص و مبدعه.

[و نعود الان بالحوار الي الشعراء القدامي، و خاصة المتنبي و ابن الرومي و ابو تمام ، و التي قال الشاعر حسن فتح الباب إن كلا منهم شاعر حداثي ، فهل يعني شاعرنا بذلك أن رؤية كل منهم ما زالت حديثة ؟]

اجاب الدكتور حسن فتح الباب فقال : لا ، فإن رؤيته تتبع من عالمه الخاص و الخارجي ، و هذا العالم مختلف بدهاءة عن عالمنا، فقد حدثت متغيرات جذرية طوال مئات القرون التي تفصلنا عن هؤلاء الشعراء الكبار .و لكنني أعني بحداثته أمرين : أولهما أن هنالك قدراً مشتركاً من القيم الإنسانية ثابتة و غير متحولة . أما الأمر الثاني فإنه رغم الشكل العمودي الذي أبدعوا فيه رؤاهم فإن الصور و كثيرها من التقنيات الفنية التي استخدموها ما زالت تبهرنا كما سبق أن استشهدنا بالنظر إلي غوصهم في أعماق اللغة و تفجيرهم لهذة الأعماق وصولاً إلي عبقرية الحرف و سحر الكلمة.

و الحديث عن الشعر القديم الذي يحمل بين طياته عناصر التحديث ، و التحديث الذي يمر بمرحلة مخاض لا ندري ماذا تمنحنا في المستقبل، يعطينا إنطبعا بأن المرحلة الحالية هي مرحلة أزمة الإبداع الشعري في الوطن العربي الذي شاع عنه عبر تاريخ البشرية أنه وطن الشعر و الشعراء. فماذا يري شاعرنا في ذلك ؟

قال : يبدو علي السطح أن حركة الرواية و القصة في تقدم علي عكس الحال في حركة الشعر ، علي الرغم من أن الشعر كما قلت هو فن العربية الأول، المستشرقة الألمانية "نولدكه" قالت : ولد العرب جميعا شعراء .وإذا صح هذا الراي لدي بعض النقاد مثل جبرا ابراهيم جبرا ، و هو ما لا نوافقه عليه ، استهانته بفن الشعر و اعلائه لشان الرواية. إذا صح هذا الراي علي سبيل الافتراض أو الجدل فانه يرجع الي عدم وجود تذبذب في مسيرة الرواية .فحظ التطور في صعود دون اي تراجعات ، علي حين نجد العكس في الشعر .فخربطته اشبة بالفيسفساء المختلطة الألوان دون تمييز .فهناك الشعر العمودي الذي بدا يشربن براسه بعد انحساره علي أثر حركة الشعر الحر التي بدأت في أواخر الاربعينات .و هذا النوع ينقسم إلي تقليدي، و هو أقرب إلي النظم، و عمودي متطور .كما أن ما يعرف بشعر الحداثة أكثره قفز في فراغ المجهول، و لعب لغوي دون آفاق و لا أعماق بسبب غلبة الأدياء علي المبدعين الأصلاء .هذا إلي جانب ما يسمى بقصيدة النثر و اعتبارها إبداعا شعريا مه أنها نوع قائم بذاته لافتقادها أحد أسس الشعر و هو العروض أو الإيقاع ، بدعوي أن إيقاعها شعري ، و لكنه داخلي . و لست اعارض قصيدة النثر فهي أحد الفنون ، و لا بد من أتاحة الحرية للفنان إلي غير حد لاختيار ما يشاء من الأساليب و الأدوات ، و لكن بشرط أن تكون نابعه عن استعداد و موهبة حقيقية ، و لا تكون هروبا مما يفرضه الإبداع من شروط و التزامات .و علي هذا فالمسألة ليست أزمة شعر ، و إنما هي أزمة شعراء ، و أزمة نقاد يؤازرون أحيانا الرديء علي حساب الجيد ، و المزيف علي حساب الإبداع الحقيقي نتيجة لقصور الرؤية أو النظرة غير الموضوعية ، و الدليل علي أنها ليست أزمة شعر ، أن الشعراء في حجم محمود درويش و سائر الشعراء الذين ذكرتهم من قبل ، و غيرهم عديدون ما زالوا ينتجون إنتاجا متميزا و متطورا في الوقت نفسه ، و هم الذين يعبرون عن المرحلة التاريخية التي نعيشها بنبض قومي و إنساني حميم.

[مشكلة النقد]

مشكلة النقد أو كما عبر عنها أزمة النقد

إلي اي حد بلغت هذه الأزمة ، و ما مدي تأثيرها علي حاضر و مستقبل الإبداع الشعري ؟

واجاب الدكتور حسن فتح الباب فقال :إن المسؤولية الأولى عن الخلط القائم في ساحة الشعر تقع علي عاتق النقاد في المقام الأول ، فهم المسؤولون عن توجيه الشباب الموهبين و تصحيح المسيرة كلما إنحرفت عن جوهر الفن الأصيل .و أزمة النقد أصبحت مستحكمة كأنما لا علاج لها لصعوبة هذا العلاج، و هو يقظة الضمير النقدي و إستعدادته العافية التي كنا نعرفها أيام الدكتور محمد مندور و الاستاذ مصطفى عبد اللطيف السحرتي و الدكتور عبد القادر القط. و أضاف : و من المشكلات النقدية غلبة الانطباعية و ظاهرة "الشللية" كما تبدو في أحتكار ساحات النشر و قصرها علي نقاد بعينهم دون آخر بغض النظر عن الكفاءة و إنما المعول علي العلاقات العامة المصالح المتبادلة و اللهات خلف الشهرة. و من هذه المشكلات أيضا غلبة الدراسات التنظيرية علي الجانب التطبيقي إثارا للسهولة و اختيار الطريق المعبد الممهّد . و من اسباب غلبة التنظير علي التقويم خشية بعض النقاد من إغضاب الأدياء و لا سيما المشهورين منهم و أصحاب النفوذ الأدبي أو القريبين من واقع صنع القرار السياسي او الثقافي.

و قال : فالأزمة سواء الإبداع او في النقد لاحل لأهم جوانبها إلا بإيقاظ الحس الأخلاقي . " فالأنوية " او النرجسية قد غدت داء وبيلا يفتك بالآخرين قبل أن يفتك بصاحبه . و قد تفشي هذا الداء في أوساط المتقنين عامة و الأدياء خاصة و هم المفترض أن يكونوا منارات تقتدي بها الشبيبة و لا سيما في هذه المرحلة الحرجة من التاريخ العربي التي يوشك فيها العدو ان يحقق شعاره في إنشاء امبراطورية علي الأشلاء العربية تمتد من النيل الي الفرات ، و يسفك علي مرأى من العالم العربي و العالم كله دماء الأبرياء . أليس الأجدر بالكتّاب و الشعراء أن يترفعوا عن المسائل الهامشية و الصراعات الشخصية الناشئة بين عدد غير قليل منهم في سبيل مغنم وفتية ، و أن يعيدوا البحث في كتابتهم و إبداعاتهم عن هويتنا الحضارية و إنتمائهم القومي ، و يؤصلوا إنتاجهم بالاطلاع علي عيون التراث الفكري و الأدبي العربي و روائع الأدب العالمي ؟

و للشاعر حسن فتح الباب كل الحق في ذلك ، فلا بد إن يستيقظ المبدعون من أجل وطنهم العربي الكبير الأصيل، و كأنه بهذا يقول لنا جميعاً، لم تعد هناك بعد ذلك كلمات تقال

و آثرت أن أتركه يتغني بكلمات من قصيدة [أيها القادمون]

في غدهللوا للصباح

أنشدوا أغنياتى الحرار

للدّم المستباح

في ضفاف البحار البعيدة

في مياة الزهور الشهيدة

أيها الحالمون

حان حان الفراق

فانفذوا من ظلام الجدار

و استقلوا السفين

عن عبء السنين

آه ...من ذا الذي يستجير بنا ؟

من يدق علي باب مسجدنا ؟

من يدق شبابيك حانا تنا ؟

إننا راحلون

إننا راحلون

إننا ...إننا

راحلون

راحلون.